

لهم، ولأن سرادق النار يضطرهم لشرب أيًّا كان ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾^(١) ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(٢) ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾^(٣) !.

﴿يُسْكُ الشَّرَابُ﴾ ماءه كالمهل ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكئاً يعتمد عليه بالمرفق، كما المرفقة هي المخدة، وكما ﴿مَأْوَتْهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمِهَادُ﴾^(٤) هذا مرتفق النار ثم أهل الجنة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وأين مرتفق من مرتفق؟!

شراب كالمهل «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه»^(٥) مشوياً، حرقاً من حرارته وحرقاً من ثخونته، أو فضة مذابة وهي أحر وأحرى أن تشوي الوجوه^(٦) !.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ :
﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ لا فقط إيماناً، وإنما عمل الإيمان، حيث ينبثق العمل

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.

(٥) الدر المنثور ٤: ٢٢٠ - أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَمَاءٌ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] قال: كعكر الزيت وفي تفسير القمي قال أبو عبد الله عليه السلام: المهل الذي يبقى في أصل الزيت المغلي.

(٦) فلعل التشبيه بعكر الزيت لأنه المشهود لهم دون الفضة المذابة، ووجه التشبيه هو الثخونة بحرارة وإن كانت أكثر من الدردى بكثير، بل ومن الفضة المذابة أيضاً. وفي الدر المنثور ٤: ٢٢١ أخرج جماعة عن ابن مسعود أنه سئل عن المهل فدعا بذهب وفضة فأذابه فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار.

من الإيمان، لا إيماناً دون عمل، ولا عملاً دون إيمان، وإحسان العمل هو أن يعمل الصالحات: التي تصلح انبثاقاً من الإيمان، وتصلح لساحة الربوبية قولاً بعمل، وقولاً وعملاً بنية، وقولاً وعملاً ونية بإصابة السنة!

لا ضياع هناك في حساب الله لا إيماناً: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١) ولا عملاً ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولا إحساناً أياً كان في عمل أم إيمان ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

لا تجد في سائر القرآن إيماناً صالحاً إلا قرناً بعمل صالح، كلما ازداد الإيمان ازداد عملاً صالحاً، وكلما ازداد صالح العمل ازداد إيماناً، جناحان متناصران في تحليق الإنسان أجواء صافية صافية تصلح لطائرته كدحاً إلى ربه فملاقية!

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ بساتين تجنّ أشجارها أرضها، تجري من تحتهم الأنهار» تحت الأرضية أم سطح الأرضية، فهما تحت الأشجار التي جنتهما بأرضها ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حلية الرجولة للرجال، وحلية الأنوثة للنساء «من أساور»^(٣) جمع سوار: حلية المعصم، أم: دستواره الفارسية «من ذهب» فمهما كانت هي محرمة يوم الدنيا للرجال ولكنها حلية محللة يوم الأخرى، إلا المحرمات الذاتية التي تخرج العبد عن طور العبودية وتمس من كرامة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

(٣) الدر المنثور ٤ : ١١ - أخرج ابن مردويه عن سعد عن النبي ﷺ قال: لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوء الشمس كما يطمس ضوء النجوم أقول يعني شمس الآخرة ونجومها فلا يرد عليه أنها مكورة أو مطموسة وفيه أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً.

الربوبية ﴿وَلْيَبْسُوتَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ﴾: مارق من ديباج و«إستبرق»: ما غلظ منه وقد حلت لهم بعدما حرّمت ^(١) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: السرائر الأريكة ^(٢) ﴿نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ خلاف ما للظالمين في النار ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وأين مرتفق من مرتفق!

في مرتفق الجنة تنعم حلو قير، وفي مرتفق النار تهكم مرير: لأولاء نار معتدة مؤصدة في عمد ممددة، ولهؤلاء حلية من أساور وثياب خضر من سندس وإستبرق، أولاء يستغيثون من ظمأ النار وحريقه فيغاثون بما يزيدهم ظمأً وحريقاً ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ فكيف بالحُلوق والبطون، وهؤلاء لهم بهجة المنظر واعتدال النسيم ولهم فيها ما يشتهون نزلاً من غفور رحيم!



(١) المصدر أخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهل الحلية والحرير ويقول: إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا وفيه أخرج الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبخاري وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عمر وقال: قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلقاً تخلق أم نسجاً تنسج؟ قال: بل يشقق عنها ثمر الجنة.

(٢) المصدر أخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سريراً بغير حجلة لم يكن إريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة، وفيه عن الحسن قال: لم نكن ندرى ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن، فأخبر أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير وأخرجه مثله عن قتادة وعكرمة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا
وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا
أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ
مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ
إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ لَكِنَّا
هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا
شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ فَعَسَىٰ
رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ
صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١﴾
وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْنَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا
۝٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا
۝٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ
رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣﴾ :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم﴾ لقبيل الإيمان والكفر، أهل الجنة والنار ﴿مَّثَلًا﴾ يمثل حالتهم وحوارهم وجوارهم، مبدأهم ومنتهاهم، كنموذجين في مسرح الحياة لطغوى النفس وتقواها، نفس فقيرة مفتقرة إلى الله، ونفس ثرية مستغنية عن الله، هذه تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى نفسه وينسى الله، وتلك مؤمنة معتزة بإيمانه ذاكرة لربه راضية بقضائه، ماضية في قضائه، حيث يذكر الله ويذكر نفسه أنه عبد مفتقر إلى الله!

والقرآن يقص القصص الحق من حاق التأريخ وحقه قصاً صالحاً عما سبق، وتذكيراً بها صالحاً فيما يلحق، دونما اختلاف لقصص لا أثر عنها في التأريخ، أم تاريخية لا تأثير لها تربوياً في إبناء التأريخ.

وها هي قصة الجنتين، لهما ميزات أربع تجعل لهما جمالاً راقياً وثمرًا رابياً:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ﴾ كأنها جمع يلمح بمختلف الأعناب، فلولا هذه اللمحة لكانت «من عنب» جنساً، لا جمعاً: ﴿أَعْنَبٍ﴾.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ حفاظاً على الأعناب، وتجميلاً للجنتين، وردفاً لما يثمر كثمرها، غذاء وإداماً وشراباً، وعلل النخل كأعناب تعني مختلف النخل حيث تأتي مفردة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْفَعٍ﴾^(١) وجمعاً: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾^(٢) إذا ففيهما ألوان النخل والأعناب، حافة ومحفوظاً بها.

٣ - ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ يزيدها ثمرًا وجمالاً فوق جمال وثمر، وعله

(١) سورة القمر، الآية: ٢٠.

(٢) سورة ق، الآية: ١٠.

مختلف الثمر كمختلف النخل والأعنان، فإن يكن واحداً جيء بصيغته،
حنطة أو شعير أماذا؟.

٤ - ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ خلافاً بينهما يفصلهما عن بعض، وخلافاً في
كل منهما سواقي تجري من تحتها، كما تجري من تحت الجنة أنهاراً!
جنتان مثمرتان من مختلف الكروم، محفوفتان بسياج من مختلف
النخيل، بينهما زروع، ونهر متفجر، ويا له من منظر بهيج وحيوية دافقة
وجمال رائع ومال جامع!:

﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا﴾ من أعنان ونخل وزرع عدلاً.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص من أكله شيئاً، حيث الظلم هو الانتقاص
أي كان ومن أي كان، جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، مهما اختلفت إرادة
وشعوراً أم دونهما، اختياراً أو اضطراراً، أم بينهما كما النحل حيث تنحل بيتاً
وعسلاً غريزياً دون اختيار تام أو اضطرار!

ولكنما الجنة دون النحل اثماراً وتركاً، والظلم في الأصل من الأفعال
الاختيارية القبيحة، ولا تُقبح الجنة في انتقاص الثمر أم تركه، وإنما حسن
التعبير عن هذا المعنى اللا اختياري ولا القبيح بالظلم حيث كان ثمر الجنة
البستان كالمستحق لمالكها، الساعي لها، المتعب فيها، فإذا أخذ حقه منها
على كماله وتمامه حسن القول: إنها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ حيث لم تمنع منه
مستحقه، فتكون كالظالم إذا انتقصت من ثمرها، ولأن الظلم أصله
الانتقاص اختيارياً أم دونه قبيحاً أم سواه حسب اختلاف الفواعل شعوراً
وسواه في درجاته، تكليفاً وسواه في درجاته، فهو إذاً حقيقة أم استعارة
لطيفة جميلة!

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ ما يزدادها بهاء وثمرات وارتياحاً!.

ومما يزيده جمالاً مقابلة اللاظلم من الجنة بالظلم من صاحب الجنة

حيث ازدهى ولم يشكر وبطر فاستكبر، وقد امتلى نفسه بالجنيتين وازدهى النظر إليهما، إحساساً بالزَّهْوِ، وتنفساً كالديك، واختيالاً كالطاووس، تعالياً على صاحبه وهو يجاوره ويحاوره: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أماذا من كلام فاضٍ أجوف أخوف.

﴿وَكَانَ لِمَنْ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤):

﴿وَكَانَ لِمَنْ﴾: لما جعلناه له من جنيتين - لصاحب الجنيتين - لا كُلّ الجنيتين - أو للنَّهَرِ ﴿ثَمَرٌ﴾ وكلها معنية - وعلّ تنوين التنكير هنا تلويح لكثرة الثمر عدة وعُدة ومُدَّة أماذا من ثمر - وقد تلمح «كان» بسابق الثمر زمناً متداوماً، أم وعلى أقل تقدير بوجود الثمر حينه كما ﴿ءَأْتَتْ أَكْثَرًا...﴾.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ الذي يصاحبه ملكاً أو شغلاً أماذا من صحبة وتعارف ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ حول شؤون الحياة ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ حيث ﴿لِمَنْ ثَمَرٌ﴾ ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ من ولد وخدم وأعوان مناصرين لأن لي مالاً وثمرات!

وفي الحق لقد ألهاه التكاثر في حوارهِ هذا، وتفخيماً لجانبهِ وتذليلاً لصاحبه، وتغافلاً عن ربه، ظلماً مثلاً يرجع إلى نفسه فنكراناً للنشأة الأخرى!:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) وَمَا أَظُنُّ

السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦):

﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ﴾ وكيف دخل؟ وكيف هي جنته وهي جنة الله حيث

أعطاه إياه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾؟

إنه دخل على رعونة وكبرياء، وطنطنة وخيلاء، متحسباً أنها منه وله دون

الله، وكما قاله أخوه قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (١) وتلك الجنة أم أي

مال ومنال لأي كان وأيان هي من الله ابتلاءً، امتحاناً أو امتهاناً، فكم من كادح كثيراً لا يفنده إلا قليلاً، وكم من كادح قليلاً أو مرتاح يستفيد كثيراً!. فهي - إذاً - جنته إذ جعله الله مستخلفاً له فيها ردحاً باختيار، وهي جنة الله لأنها من الله فلا قوة إلا بالله.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ انتقاصاً لها تناسياً عن فطرته وفكرته وعقليته تجاه ربه وهو معترف به: ﴿وَلَيْن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ تأبيداً لجنته وهي بائدة فانية بعد ردح قل أو كثر ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وماذا يعني هذا الأحمق النكد البطر من أبد جنته؟ هل البقاء دون فناء! بقوته أم قوة الله؟ والدنيا بحذافيرها دار فناء! أم البقاء ما هو باق، وماذا الذي يضمن له ذلك البقاء، وكم من ثراء أثرى أصبحت فناء! أم ماذا، مما يشهد على أية حال أنه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ في قوله الخواء البتراء!.

ومن خلفيات هذا الأبد نكران الساعة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ترى وما هي الرباط بين الأبد لهذه الجنة ونكران دار الأبد، إن هي إلا جنة الثراء من ثمره وجنته، ف ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ في جنونه المعمد المختار، تسامحاً عن عقله.

وجنة ثالثة من جنته ﴿وَلَيْن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كاحتمال أخير على بعده فما يضرني إذاً حيث ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ تخيلاً بخيلائه وكبريائه أنه يملك جنة الساعة بأحرى من جنة هذه الساعة! وما هي الرباط بين الجنتين حيث يجعلهما في ظنه لزام بعض؟

هذه ظنة الجاهلين من أثرياء وفقراء أن من أوتي الحياة الدنيا فهو في الآخرة أحرى ممن لم يؤتها، ويكأن الله يجازي ذوي الأنفة والكبرياء والثراء بما طغوا وبغوا، يجازيهم في الأخرى ثواباً بدل العقاب، فما أظلمه إذاً من إله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(١)!

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

يظنها الأثرياء بجنة الغرور والكبرياء، والفقراء لظنهم أن الثراء ثواب من الله وعطاء، إذا فلتكن الطغوى بديل التقوى يُستحق بها ثواب الآخرة بعد الأولى!.

﴿لَا جِدْنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ وكيف وبماذا؟ ألا أنكم تملكون الأخرى كما ملكتم الأولى ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ ^(١) ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ^(٢).

أم لأن الله يخافكم فيفضلكم فيها كما فضلكم - بحسابانكم - في الدنيا - وهو يُخاف منه ولا يخاف!

أم لأنه يُخلف وعده جهلاً أم ظلماً أو عجزاً أم ماذا؟ وما ذلك إلا جهالة وجنة ممن أترفته الحياة الدنيا، تنفخاً منها وتنفجاً فيها!.

هذه مقالة وحالة صاحب الجنة هنا، وأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر، ولكنه غني بالله، فقير المال غني الحال، إنه يواجه صاحبه الفقير الحال، غني المال، كواظ منبه، تنديداً به في حوار، وتهديداً له في بداره:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ^(٣) وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ^(٣٧) لَنِكَنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ رَبِّي أَحَدًا ^(٣٨)﴾:

(١) سورة النجم، الآية: ٢٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٣) قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ [الكهف: ٣٧] - ومن قبل - فقال لصاحبه، حيث يعبر عن كل من الموحّد والمُشرك أنه صاحب للآخر يدلنا على أن لفظة الصحبة والصحابة ليست لتدل على الصحبة الإيمانية أو الشريكية، وإلا لأصبح هنا المؤمن مشركاً والمُشرك مؤمناً، فاستدلال إخواننا بآية الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] أن أبا بكر لكونه صاحب الرسول في الغار وليس غيره في نص القرآن فهو الصحابي المؤمن الوحيد لرسول الله إنه مخدوش بآيتي الكهف، فالثابت من الصحبة ليس إلا صحبته في الغار وأما الصحبة الإيمانية فلا تثبتها كما قد لا تنفيها اللهم إلا قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾ =

هل أنت كافر بمثلث: ﴿خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾؟ وأنت مقرر أنه ربك ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾! .

الصاحب المؤمن الفقير لا يهاب في حوارهِ صاحبه الكافر النكير، فلا يبالى مالا ولا نفرا، ولا يداري ثراء ولا بطرا، ولا يماري إلا مرأى ظاهراً وجدالاً بالتي هي أحسن بصامد الإيمان وخالص اليقين والاطمئنان، بتنديد شديد وتبديد حديد هدم صرح كفره، تزييفاً لموقفه الكافر وتثبيتاً لموقفه المؤمن: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ لا سواه من آلهة مختلفة مختلفة، هو ربي في حلي وترحالي، في كافة أحوالي، تتمثل ربوبيته الوحيدة في أي حال، دون أن أوحده في لفظة القول ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ثم أشرك به في الفعل: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا ﴿٣٦﴾ كأنه رب لربه يملكه، دون أن يملكه ربه . . لكنا . .

﴿لَكِنَّا . . . وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ في أي مقال أو حال، في ماضٍ أو مستقبل أو حال!

أترى ﴿لَكِنَّا﴾ هي لكننا مخففة يعني بها قبيلة الإيمان؟ وقد يصح لفظياً ومعنوياً ثم يبعده ﴿رَبِّي﴾! أم هي مدغمة «لكن أنا» وهو أقرب، إعرافاً عن الإنانية والأنانية المشتركة لمحاوره الكافر وتعريفاً بكيانه كمؤمن، ف ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ بيان واف لكيانه «أنا» وأين «أنا» من كافر و«أنا» من مؤمن؟! .

الكافر يجعل «أنا» محوراً رئيسياً وحتى لربه وكما قال ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ كأنه يملك ربه، والمؤمن يجعل «أنا» لا شيء إلا ما رباه ربه «لكن أنا»: ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾!

= [التوبة: ٤٠] حيث اختص سكينته بالرسول ﷺ دونه وهو بحاجة حين يحزن إلى السكينة وقد ﴿أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦] و(٤٨: ٢٦)! راجع تفسير سورة الفتح من الفرقان ج: ٢٦ .